الفصل السادس

جواسيس الجنس

تُعتبر ماتا هاري أشهر جاسوسات الجنس والأسرار في العالم على مَرّ العصور ؛ رغم أنّ سينثيا باين أضافت أبعاداً جديدة للتجسس الجنسي خلال الحرب العالمية الثانية . لكنّ وجهيهما كانا سيحمرّان خجلاً من الوحشية الرومانسيّة لعميلات العشق اللواتي عَمِلن بعدهما .

المتسللون إلى الماخور:

دُعيت الجاسوسية بثاني أقدم مهنة في العالم . فمنذ العصر التوراتي ، لم يتباطىء قادة الجاسوسية عن إرضاء الكبار منهم ؛ خدمة لأغراضهم الشخصيّة . ويُخبرنا كتاب اليشوع كيف ذهب عميلين من بني إسرائيل ، الذَيْن أُرْسلا إلى مدينة جيريتشيو في عام ١٢٠٠ قبل الميلاد قبل الهجوم على المدينة ، إلى منزل لا يُشَكُّ بأمر الرجال الذين يَرْتادُونه ـ منزل المومس رَحاب .

وضع عبقريُّ الجاسوسية النازيّة والتر شيلينبرغ نزعة الجنس والأسرار . ففي عام ١٩٣٩ ، أمره رئيس الغيستابو رينهارد هايدريتش أن يقوم بتسليل فتيات جميلات يُمكن الاعتماد عليهن الى ماخور ترتاده جماعة معينة من الأشخاص لمعرفة الأحاديث التي تدور على الوسادة . إذ أرادها يدريتش ، الذي كان قلقاً من تسرب الأسرار الأمنيّة مع اقتراب الحرب ، أن يعرف الثرثارين ويتخلّص منهم بإغوائهم بالخمر والنساء . لكنّ شيلينبرغ كان لديه أطماعه للحصول على السلطة ، فطوّر خطة رئيسة إلى مخطط خبيث ليتمكّن من إحكام قبضته على رؤسائه . وبدلاً من زرع الفتيات في بيت مشهور بسوء السمعة في برلين ، قرّر التوسع بالمخطط . وقد سهّل له القدر الوصول إلى مأربه .

أدارت السيدة كيتي شميت أشهر ملاهي البلدة الواقع في شارع غيسبرخت . ورغم أن الأسعار كانت مرتفعة ، فقد تَدَفّقت إلى غُرَفِها أكثر شخصيات البلاد شهرة ونفوذاً ، متأكدين من أنهم سيلقون المسرّة والعناية من أكثر فتيات الدعارة جمالاً في ألمانيا . وكانت كيتي تدّخر الأموال التي تُحصّلها . لكنّ شيلينبرغ عرف أين كانت تذهب بعائداتها المالية : فبسبب تخوّفها من نهوض هتلر وملاحقة زبائنها من اليهود ، فقد كانت تحوّل ما تكسبه إلى المصارف البريطانية سراً ، وتساعد اليهود على الهروب من مضايقات ذوي القمصان السوداء[1] . وعندما حاولت هي أيضاً مغادرة برلين في ٢٨ حزيران ١٩٣٩ ، كان مخبري الغيستابو بانتظارها على الحدود الألمانية الهولنديّة . وتمت مواجهتها بملف «جرائمها» وتحذيرها من أن الموت أو السجن في معسكر الإعتقال بانتظارها ، فلم يكن أمامها خيارٌ سوى الموافقة على مخطط شيلينبرغ الشرير .

انتقل عمال النازية إلى شارع غيسبرخت ، وانتشروا في المناطق الداخلية

(١) ـ ذوي القمصان السوداء هم أعضاء في منظمة فاشيّة يرتدي أعضاؤها القمصان السوداء .

المحيطة به . وتم تركيب ميكريفونات في ثلث عدد الغرف الأرضية ، وَوُصلت بخطّ سلكي محوري امتدّ إلى القبو ، حيث وُضعت خمس طاولات مراقبة وتنصتّ . وكان لكلٍّ منها آلات تسجيل تمكّن مسترقي السمع من تسجيل خمس محادثات منفصلة على اسطوانات شمعيّة . وفي أماكن أخرى من المدينة ، شنت زمر الرذيلة حملات متتالية غير اعتياديّة على الملاهي الليليّة وبارات الرقص وزوايا الشوارع . وتمّ استجواب المئات من المومسات من قِبَل رجال الإستخبارات والأخصائيين النفسيين والأطباء . وفي النهاية تمّ تقليص قائمة قصيرة ضمّت ٩٠ فتاة «يمكن الإعتماد عليهن عاطفياً» ، إلى ٢٠ خلال سبعة أيام من الفحوصات دون تَوَقُّف . وأُعطيت القليلات المختارات منهاجاً تدريبيّاً مكثفاً خلال سبعة أسابيع على اللغات الأجنبيّة ، والملابس والرتب العسكريّة ، والسياسية والإقتصاد في الداخل والخارج . وعلّمتهم المقابلات اللاسلكية كيف يستخدمون المحادثات البريئة لاستخلاص الأسرار . وأصبحن جاهزات أخيراً .

اسْتمعت السيدة كيتي لموجز عن الأسلوب الجديد لأعمالها في آذار من عام ١٩٤٠ . وكان عليها أن تتابع عملها كما في السابق ، باستخدام زبائن قدماء وفتيات مثيرات . لكن كلما وصل زبائن وقدموا أنفسهم بالرمز : «لقد أتيت من روثنبرغ» ، كان عليها أن تعرض عليهم ألبوماً يحتوي على صور الفتيات العشرين الجميلات والمختارات بعناية . وحالما يقع اختيار الضيف الخاص على إحداهن ، كان على كيتي أن تتصل بها . وكانت الفتاة تصل خلال عشر دقائق ، وتغادر فور انتهاء مهّمتها . وكان على كيتي أن تفعل كما يقال لها دون أن تسأل عن العشرين فتاة أو زبائنهن . وأُجبرت على توقيع وثيقة أسرار رسمية تعني الموت المحتم لها إن هي نطقت بكلمة واحدة عمّا كان يحصل .

بدأ العشاق بالوصول من روثنبرغ خلال أيام قليلة . وبدأ روّاد المتعة وجنـرالات الجيش والموظفين في سفارات برلين بالتدفق على قِصر المتعة بعدما تناقلت الألسن أخبار التشكيلة الجديدة . ولم يمضِ وقت طويل حتى كنّ يمارسن الحب مع الضيوف الخصوصيين طيلة ساعات اليوم بعدما فاقت أعدادهم أعداد الزبائن العاديين ، وكان على مكتب الغيستابو بالتالي أن يُرْسل طعام ومشروب إضافي لدعم حصة كيتي من المؤن . وفي خلال شهر واحد ، تمّ تسجيل قرابة ٣٠٠٠ أسطوانة . ومع نهاية عام ١٩٤٠ ، كان أكثر من ١٠٠٠٠ شخص قَدموا من

روثنبرغ قد صَعِدوا الدرجات إلى أعشاش الغرام الفخمة ، وخرجوا جميعاً مسرورين من الفتيات الدارسات والصالحات للزواج . لكنَّ أكثر ابتسامات الرضا بقيت في النهاية لشيلينبرغ .

تصدّى في إحدى الأمسيات لخطبة مسهبة عنيفة ضد هتلر ألقاها وزير الخارجية الإيطالي الكونت غاليزو جيانو ، الذي عدّد مساويء القائد الألماني كَرَجل دولة وجندي ومُحِب . وبعد أن قرأ الديكتاتور الألماني تقرير شيلينبرغ لم تعد العلاقات بين البلدين كسابق عهدها . وفي أيلول من نفس العام ، تنصّت أحد رجال الغيستابو على حديث دار بين وزير الخارجية الألماني جواكيم فون رينتروب ونظيره الإسباني الدون رامون سيرانو سونر عن خطّة لاحتلال مدينة غيبرولتر . فتمكّن شيلينبرغ من الإتصال برئيس الغيستابو هنريك هيملر في الوقت المناسب لسحق تلك المكيدة .

استمرّت عملية كيتي لأكثر من سنتين . ولم تكن أجهزة التنصت تُطْفىء إلا أثناء «زيارات التفتيش الرسمي» المتتالية والمتزايدة ، التي كان يقوم بها رينهارد هايدريتش . لكن مع ازدياد أحوال الحرب سوءً بالنسبة لألمانيا ، أصبحت شبكة الحب والتنصّت أداة ضدَّ المزاحمين في السلطة النازية . ولم يعد مسترقي السمع يعملون لحساب الغيستابو فقط ـ وكان قادة الغيستابو يجهلون بأن ليوبو كولتشيف ، سكرتير الصحافة في السفارة الرومانية ، قد لمح العمال وهم يُدخلون كَبْل سلكي محوري داخل مجاري المياه في كانون الأول ١٩٤٠ . فأدرك فجأة عما كان يجري في روشنبرغ بعدما ربطه بالقصص التي سمعها عن مصدر سري دبلوماسي للمعلومات . وفي الحقيقة ، كان كولتشيف هو نفسه روجر ويلسون الجاسوس البريطاني . وعندما أخبر لندن عمّا وجده ، تدخل قادة الجاسوسية من قوات الحلفاء بسرعة . وأصبح ويلسون زائراً مداوماً لدى السيدة كيتي ، وأبقى عينيه وأذنيه مفتوحتين دون أن يثير الريبة . كما استطاع خبراء الإتصالات البريطانيين من وصل ثلاثة أسلاك بالكبل السلكي المحوري .

أغارت طائرة تابعة للحلفاء على المنطقة التي تقع فيها شقة كيتي وقصفتها بالقنابل ، فتبعثر الأثاث الفاخر الذي يفرش الشقة في جميع أرجاء شارع غيسبرخت . وطوّق رجال الغيستابو والجنود الشارع ، بينما كانت الأسلاك السرية

Reinhard Heydrich

ـ رينهارد هايدريك .

تُنْقل الى الطابق الأرضي الذي لم يتَضرَّر من الإنفجار ، لكن العملية كلها أُلغيت في خلال سنة واحدة . من ثم عادت كيتي إلى المنزل ثانية ، ووافقت أكثر من ٢٠ جاسوسة إثارة على البقاء معها . وحافظت على وعدها بعدم كشف أسرار شيلينبرغ حتى وفاتها في عام ١٩٥٤ عن عمر يناهز الحادية والسبعين .

اعتقل الحلفاء شيلينبرغ عام ١٩٤٥ ، لكنّ أكثر من ٢٥٠٠٠ أسطوانة تسجيل تدين بالجرائم كانت قد اختفت ـ إذ اختفوا من مقر الغيستابو في شارع مينيك أثناء ما كانت القوات الروسية تدخل برلين بعدما دمرتها . وكان الغربي الوحيد الذي ادعى بأنه شاهدها وقتها هو الكاتب بيتر نوردن . فكتب عام ١٩٦٣ ، بأن تلك الأسطوانات كانت مُخزنة في قبوٍ سرّي تابعٍ لمكاتب إستخبارات ألمانيا الشرقية . وبلا شك فإن محتوياتها قد ألهمت الألمان الشرقيين أفكاراً جديدة ، فتوصلوا إلى أبعادٍ جديدة من التعقيد ـ وحصلوا على نتائج مذهلة في بعض الأحيان .

ففي أوائل الخمسينات ، أنشأت (ليديا كوزازوفا) دارا للمساج قرب مركز مدينة فرانكفورت . وانتشرت الأخبار بسرعة عن أن فتيات متعة وإثارة كنّ على استعداد لتقديم خدمات تتعدى الواجبات العاديّة خلف أبواب دار ليديا ، وسرعان ما صار الصناعيون والدبلوماسيون إذ لم يعلم الزبائن الذين أتوا للحصول على المتعة الجنسية بأنّ الميكروفونات كانت تسجل كلامهم ، وأنّ كاميرات مخبأة كانت تصورهم أثناء ممارستهم للحب . وأنشأت الإستخبارات الروسية خلال فترة قصيرة مكتبة من أهداف الإبتزاز الرئيسيّة . لكنَّ هذا لم يكن السبب الأساسي لفخّ ليديا الرقيق .

يقع كامب ديفيد على بُعد ستة عشر كيلومتراً (١٠ أميال) خارج المدينة ـ وهو مركز عمليات الإستخبارات المركزية الأمريكية في أوروبا . وكان العملاء يأخذون التعليمات بداخله عن مهامهم خَلْف الستار الحديدي ، ثم يتم استخلاص المعلومات منهم فور عودتهم . ووجد الأمريكيين الذين كانوا بعيدين عن موطنهم الراحة في قصر ليدَيا الغرامي . ودفع أحدهم على وجه الخصوص ثمناً باهظاً لقاء عاطفته . كان غلين روهرر ، الرقيب البالغ من العمر ٤٤ عاماً ، يعمل في كامب ديفيد على جهاز كشف الكَذِب المستخدم في استجواب العملاء لدى استنطاقهم . لذا فقد عرف أسماء وأساليب وأهداف كل جاسوس تقريباً مرَّ على المركز . وبعد

بدئه بزيارة جميلات دار ليديا في غام ١٩٦٠ بوقت قصير ، عُرِضَت عليه أفلام فاضحة تصورّه هو شخصياً ، وتم تحذيره من أنّ رؤساؤه سيطلعون عليها ما لم يتعاون . فظلّ قرابة خمس سنين يعطي الإستخبارات الروسية كلّ الأسماء والعناوين التي احتاجوها ، مما أدى إلى اعتقال المئات من العملاء . وفي شهر آب من عام ١٩٦٥ ، حذّر عميل للإستخبارات الروسية لدى مكتب مكافحة الجاسوسية في ألمانيا الغربيّة ليديا من أنّ روهرر كان مشكوكاً بأمره . وبينما هرب روهرر من الإعتقال متجهاً إلى الحدود التشيكوسلوفاكية ، عادت ليديا إلى موسكو ، تاركين وراءهما رؤساء الإستخبارات المركزية الأمريكية يحسبون العواقب المترتبة عن الخيانة المدروسة .

كما استطاع الروس تنفيذ عملية استطلاع ناجحة أخرى بالاعتماد على الجنس في ضاحية بادغودسبرغ بين أعوام ١٩٦٩ و١٩٧٢ . ورغم أن ماخور مدام مارتا كان بجانب مقر شرطة المدينة ، لم تعرف السلطات بأن مارتا كانت منشقة حتى عام ١٩٧٨ . كانت المرأة النحيلة الشابة ذات الشعر الأحمر تدير دار للتدليك في إحدى ضواحي عاصمة ألمانيا الغربيّة عندما تمّ تجنيدها لتعمل مع الإستخبارات الروسية خلال إجازة قضتها في موسكو . فأعطوها وعوداً بتزويدها بالمال اللازم لإنشاء مؤسسة أكثر طموحاً إذا غضّت النظر عن عمليّات التنصّت .

تمّ توصيل أسلاك التنصت إلى أربعة غرف نوم في الشقّة لاسترق السمع والنظر ، واجتذبت مارتا والحسناوات العاملات لديها العمال المدنيين والدبلوماسيين من المكاتب والسفارات الحكوميّة المجاورة . وتمّ إرسال الأشرطة المسجلة والأفلام إلى موسكو بانتظام عن طريق مدرّس رياضة سابق . وعندما اعتقلها رجال مكافحة الجاسوسية في ألمانيا الغربية في النهاية ، كان عليهم أن يكتشفوا عن مدى ما عرفته الإستخبارات الروسية ـ وعن الأشخاص الذين تعرّضوا للإبتزاز . لكنَّ سرَّ مارتا لم يكن ليُقارن باللغز الذي كان عليهم كشفه قبل ١٥ سنة .

ربما كان هانس ألبرت هنريك هيلمك أكثر المتسللين إلى المواخير مقدرة في جميع العصور ـ لأنّه باع الأسرار التي جمعها من تحت ثنايا الأغطية لكلا الطرفين . خَطَرَ هيلمك في أمريكا عام ١٩٥٣ كثري حرب وتاجر سوق سوداء وَرِث أكثر من ٢٥٠٠٠ جنيه من شخص ألماني وأمريكي ثريّين رافقهما . وفي عام ١٩٦١ ، عاد

إلى برلين حيث اشترى فندق كلاوسفيتز ، الذي كان فيما سبق ماخوراً يرتاده الجنود من النازيين والحلفاء على حدّ سواء ؛ وأصبح فيما بعد فندقاً رسمياً . وأعاد هيلمك افتتاحه لاستخدامه في زمن الحرب ، فركّب فيه أنواراً خافتة ووضع في أرجائه أثاثاً جلدياً مريحاً ، وشغّل لديه أجمل بنات الليل في برلين . وأصبح لديه تجارة مربحة خلال فترة قصيرة ، إذ أصبح عدد من السياسيين ورؤساء قوات الأمن ونجوم الأفلام السينمائية وشخصيات رياضية ضمن زبائنه الذين ترددوا على فندقه بانتظام . وعندما طلب منه رؤساء الإستخبارات في ألمانيا الغربيّة أن يقدم تقارير عن الأشخاص الذين كانوا يرتادون الماخور ، وعما كانوا يقولونه ، قدّر بشكل صحيح بأنّ الألمان الشرقيين سَيُحبذون الحصول على نفس المعلومات .

أبقى قادته في كلا البلدين سعداء لمدة أربع سنوات ، وشكّل ازدياد المعلومات التي حصل عليها من التنصت على غرف النوم ، بإنشاء وكالة تحريات وتقديم أنباء للصحف ، سبباً معقولاً لكشف الحقائق . كما أوجد عملاً ظاهرياً في بيع اللحوم بقي حبراً على ورق ، ليغطي بيعه للأسرار الى دولة من بلدان الستار الحديدي . وكسب بسرعة أموالاً تكفي لاستثمارها في الملاهي الليلية والفنادق ، وشراء سيارات مرسيدس وفيللا فخمة . حتى أنّ الألمان الشرقيين وفروا عليه مشقة البحث عن الفتيات وتجنيدهن . فأرسلوا بعض الحسناوات المدربات خصيصاً (من طرفهم) للعمل لحسابه .

لكنّ أحد موظفيه أودى بالامبراطورية التجسسية في عام ١٩٦٥ . إذ استاء مدير الفندق عندما تم تجاهل أفكاره التوسعيّة ، وانزعج عندما بدأت إحدى صديقات هيلمك تتدخل في شؤونه وتشير عليه بكيفية إدارة الماخور ، فأخبر الألمان الغربيين أن هنالك جهة ثانية تشاركهم الحصول على الأسرار . فانفضت قوات الشرطة على قصر المتعة ، واقتلعن الميكروفونات وأجهزة التسجيل وأخذت الأشرطة المسجلة ودفتراً تضمن أرقام هواتف الألمان الشرقيين . وهزت أنباء اعتقال هيلمك الأوساط الاجتماعية في برلين . واشترك الجميع بفضيحة على نطاق واسع . وبنتيجة ذلك ، صدر الحكم على العميل المزدوج بالسجن لبضعة أشهر فقط . وتفاخر فيما بعد بالقول : «إن برلين لا تدرك ما تحمله لي من جميل ـ إذ كان باستطاعتي فضح المجتمع بأسره .

أوصل هيلمك ـ الذي قُتِلَ في عام ١٩٧٣ عندما حاول اثنين من القتلة المسعورين اختطافه لابتزاز المال ـ التجسس المعتمد على الجنس إلى أسلوب لا سابق له . لكن أسلوباً آخر من التجسس الجنسي كان يظهر . . . فكان عميل آخر أكثر قسوة جاهزاً لاستغلال مصدر المسرّة الجسدية . . .

ساعد أحد ملوك الرذيلة المشهورين في حي سوهو قادة الجاسوسية البريطانيين على إنشاء ماخورين في بلفاست عام ١٩٧٠ . وقد تم تصميم البيتين المشبوهين ، اللذَيْن افْتُتِحا في شارع مالون وشارع آنتريم ، لابتزاز الرجال الأيرلنديين من ذوي النفوذ ، وإجبارهم على تقديم المعلومات التي يعرفونها . بعد أن التقطت لهم كاميرات ، مخبأة خلف الزجاج العاكس الموجود على جدران الغرفة ، صوراً أثناء عبثهم مع مومسات تم انتقاؤهن من مدينتي لندن ودبلن ، وكنّ يتقاضين ٥٠٠ جنيه اسبوعياً لقاء تجسسهن الجنسي . وتطوّرت المعرفة عن نوايا الجيش الجمهوري الأيرلندي وجماعات الإرهاب البروتستانتية بشكل دراماتيكي ، إذ أعطى أحد الزبائن الذين اكتشفت السلطات تورطه أسماء وعناوين قَتَلة ثلاثةٍ من الجنود البريطانيين . لكن في عام ١٩٧٢ ، اكتشف الجيش الجمهوري الأيرلندي الحقيقة عن المواخير عن طريق التنصت على خط هاتفي . وفي الثاني من تشرين الأول ، هاجم الرجال المسلحون كُلًّا من المواخير ومصبغة الساحة الرابعة ـ التابعة للإستخبارات رغم أن الظاهر لا يدل على ذلك ـ وقيل بأنّ ستة من العملاء البريطانيين قد لقوا مصرعهم ، بينهم فتاة ، لكنّ مكتب إيرلندا الشمالية اعترف بإصابة واحدة فقط ـ لجنديٍ يقود عربة فيها ثياب من المصبغة .

نادراً ما شارك الغرب ألمانيا وروسيا في حماسهما للتجسس في المواخير ، رغم أنّ قادة الجاسوسيّة في حلف شمال الأطلسي قد أُجبروا على العودة إلى ذاك التكتيك . فبعد نهاية الحرب العالمية الثانية بوقت قصير ، دفعت الإستخبارات البريطانية والفرنسية بسخاء للمومسات الألمانيات والنمساويات ليضاجعن الجنود الروس في قوّات الإحتلال . وقيل بأنّ الفرنسيين كان لديهم ٤٠٠ عميلة فاتنة «يقمن بواجبهن على ظهورهن في غابات فيينا . وفي باريس ، تعاونت الإستخبارات الفرنسيّة مع الإستخبارات المركزية الأمريكية في محاولة لابتزاز ضيوف أحد بيوت المتعة القادمين من دول الكتلة الشرقية ، لكن المحاولة باءت بالفشل ولم تحقق نجاحاً يُذكر .

طيور السنونو: من روسيا مع الحب

استدار الميجور جيمس هولبروك مبتعداً عن نافذة غرفة الفندق الصغيرة ، ونظر إلى الفتاة الجميلة المستلقية على سريره . لقد جعلت هذه الفتاة الملحق العسكري الأمريكي يجد صعوبة في التركيز على المهمة التي حضر لتنفيذها من السفارة في موسكو إلى بلدة روفنو الصغيرة التي تقع على بُعْد أميالٍ قليلة من الحدود الروسية مع بولونيا . إذ كان من المفترض أن يقوم بالتحقق من الإشاعات القائلة بأن روسيا كانت تُعِدُّ نفسها لغزو الدول المجاورة لها ، بعدما أقحمت نفسها في إضطرابات المطالبة العارمة بالتضامن للوصول إلى إصلاح اقتصادي وسياسي في عام ١٩٨١ . وقتها قابل الفتاة . . .

وعاد يلبي دعوة ذراعيها الممدودتين إليه . إذ لم يقابل هولبروك البالغ من العمر ٤١ عاماً فتاة أخرى لها مثل خبرتها في مجال الغرام ولا في مثل تَقَبُّلها لجميع نزواته . وكان عناقها راحة الرجل الوحيدة في منطقة منعزلة كهذه . لكن ما أن عادا للالتصاق من جديد حتى انفتح الباب فجأة بعنف ، ولمعت فلاشات الكاميرات بضوء مبهر ، ودخل كولونيل روسي معروف للأمريكيين إلى الغرفة . وأشار بلطف إلى أن هولبروك قد وضع نفسه في مأزق خطير كونه رجل متزوّج ولديه طفلان . وعلى أية حال ، فإنّ أصدقاءه السوفييت يمكن أن يضمنوا له بأنّ زوجته وسفارة بلاده لن يسمعا أخبار هذه الحادثة إذا تعاون معهم ، وقدّم بعض المعلومات لموسكو .

لكنّ هولبروك لم يكن هاوٍ ساذج في لعبة التجسس . فاعترف بشجاعة لرؤسائه عن فعله الطائش ، وأعيد الى واشنطن . وصرّح ناطق رسمي من الإستخبارات بالقول :

«يمكننا فقط أن نفترض بأن الروس قد سمعوا بحقيقة أن الميجور هولبروك كان مرشحاً لمنصب جديد كمستشار عسكري لنائب الرئيس جورج بوش في البيت الأبيض . وكان سيتمكن من الإطلاع على أكثر الأمور سريّة في إدارة الرئيس ريغان».

لقد تمّ اصطياد هولبروك «بالسنونو» ـ وهي واحدة من مئات الفتيات الروسيات الجميلات إلى حدّ الإبهار واللواتي تدربن في معسكرات مختصة على

إغواء الغربيين بمنتهى البرود . وأثبتت حقيقة أنّ عميلة مُتَمَكِنة من أساليب تجسس الإستخبارات الروسية يمكنها أغواء أي شخص ، كيف تعلمت الحسناوات دروسهن باقتدار . لكن موسكو لا تترك شيئاً للحظ أثناء بذلها للجهد في تجنيد ضحايا أفخاخ الجنس المعيبة كجواسيس . فلو كان الرجل يفضّل الفتاة الجميلة ، فإنّ الإستخبارات الروسية تضع في طريقه واحدة تناسب ذوقه تماماً ـ فلديها الكثير من الخبيرات في الأمور الجنسية لتنتقي من بينهن .

يروي الكاتب دافيد لويس في كتابه «التجسس الجنسي» حوار مقابلة أجراها في تونس مع فيرا ، إحدى طيور السنونو التي انشقت . إذ أخبرته كيف جُنّدت الإستخبارات الروسية فتيات جميلات وذكيات من المدارس والجامعات بعدما تم إغراؤهن بوعود عن رواتب وامتيازات تفوق ما يحصل عليه غالبية الروس مقابل مهامٍ غير محددة يقمن بها لصالح الدولة . من ثم تمَّ أخذهن إلى معسكرات عليها حراسة مشددة في مناطق نائية حيث خضعن لمنهاج تجريد من الحياء ، صُمِّم خصيصاً لتخليصهن من عوامل الكبت . أولاً كنّ يشاهدن أفلاماً تُصوّر جميع النشاطات الجنسية بما فيها الإنحرافات . من ثم كُنَّ يؤمرن بأن يتجردن من ثيابهن أمام نساء أُخريات . وفيما بعد وقف رجال ينظرون إليهن وهنّ يخلعن ملابسهن ويتعانقن وينتقدن أجساد بعض . بعدها وصل عدد كبير من الجنود ، وأُمرت الفتيات بأن يضاجعن الغرباء . وتم تصوير ما كُنَّ يَفْعَلْنَه لتتم مناقشة الأفلام جماعياً فيما بعد . وبعد عدة أسابيع ، فقدت الفتيات حياءهن ، وأصبحن جاهزات للمشاركة في أيّ اقتراح للقيام بالمضاجعة الفردية أو الجماعية .

وقالت فيرا للويس :

«لقد أخبرونا بأن علينا أن نتذكر بأننا جنود نحارب على خطوط الجبهة الأمامية لمعركة أيديولوجية مريرة . وفي زمن الحرب ، يتلقى الجنود عادة أوامر للقيام بأشياء يجدونها كأشخاص مدنيين منفرّة ، لكن التضحيات الصعبة كانت أساسية . كانت أجسادنا أسلحة يجب استخدامها لصالح القضيّة . فمع انتهاء تدريبنا ، كنّا قد أصبحنا فتياتٍ قاسيات القلوب سوداويات النظرة ومعقدات نفسياً ، وقادراتٍ على مضاجعة أيّ رجل طبيعي تختاره السُّلطة لنا ، فنجعله يُمضي أمتع أوقات حياته» .

كما قالت بأنّها أصبحت تكره الدور الذي تلعبه كجاسوسة إثارة في عام ١٩٦٣ ، بعدما أغوت شاباً فرنسيّاً كان على وشك الزواج . إذ تمّ إخباره بأن خطيبته يمكن أن تحاط علماً بعلاقته الغراميّة ما لم يقم والده ـ الذي يشغل منصب رئيس صناعة المناجم في فرنسا ـ بتسريب أسرار تجاريّة . فانتحر الشاب بإلقاء نفسه أمام سيارة مسرعة في الساحة الحمراء بموسكو ، إذ لم يتحمل عار ما بدا وكأنّه «موعد بريء» في أول الأمر . فقامت فيرا عندئذٍ بإغواء أحد ضباط الإستخبارات الروسية مقابل حصولها على أوراق رسميّة تسمح لها بزيارة برلين الشرقية ، حيث انشقت هناك .

كان الفرنسيون أهدافاً خاصة لطيور السنونو بسبب ولعهم التقليدي بالحُب . مما أدى إلى انتحار ضحية فخّ جنسي آخر ـ الملحق الجوي بموسكو : الكولونيل لويس غيبود ، الذي قام بالإنشقاق في لندن عام ١٩٦٣ بمساعدة يوري كروتوف ، كاتب سيناريو الأفلام المستخدم من قِبَل الإستخبارات الروسيّة للقيام بأعمال

الإغواء ، مستخدماً الممثلات كطُعْم لصيد الأهداف في غالبية الأحيان . واندهش المحققين مع كروتوف في مكتب مكافحة الإستخبارات في بريطانيا ، واهتزّت أرجاء الهيئات الفرنسيّة ، لأنه كشف أن السفير الفرنسي في روسيا قد تعرّض للإبتزاز من اثنتين من السنونو على الأقل .

لم يكن كبار السياسيين والدبلوماسيين الضحايا الوحيدين لأفخاخ السنونو الجنسية السوفييتية . إذ يمكن لعمال الغرب العاديين العاملين خلف الستار الحديدي التمتع بحياتهم أيضاً فوقعوا في شباك العميلات الفاتنات . ففي شهر تموز من عام ١٩٧٩ ، استلمت زوجة المهندس البريطاني ريتشارد كلاسبر ـ البالغة من العمر ٥٤ عاماً ـ ظرفاً مغلقاً . واحتوى الظرف على صور لزوجها البالغ من العمر ٥٧ عاماً وهو يطارح فتاة شابّةٍ جميلة بيضاء . فانهارت السيدة كلاسبر من هول الصدمة وتم نقلها الى المستشفى على وجه السرعة . وأخبر زوجها مراسلي الصحف بأنه ـ رغم تحذيرات الإستخبارات له قبل مغادرته مُتَّجهاً إلى روسيا ـ سَئِم من الوحدة في موقع المبنى النائي حيث كان يعمل ، فذهب للفراش مع ضاربة الآلة الكاتبة البالغة من العمر ٢٧ عاماً . ووصل عندها شخص غريب وطلب منه أن يقوم بالتجسس على العمّال الروسيين العاملين في الموقع . لكنّه رفض . وأضاف كلاسبر : «لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي لم أكن فيها مخلصاً خلال ٣١ عاماً . ولقد هدم هذا الحادث زواجي . وحطم زوجتي ، ودمرني شخصيّاً» .

وصل موريس ديجان إلى موسكو مع زوجته الشابة الجميلة في عام ١٩٥٥ ، فتم انتقاؤه بسرعة من قِبَل الملازم أوّل أوليغ غريبانوف ـ العقل المخطط للمصائد الجنسية في الإستخبارات الروسيّة ـ كهدف يمكن الإيقاع به بسهولة ، بسبب رغباته الجنسية الواضحة . وقرر كروتوف ، الذي قام بفضح مكسيكيين وهنود وباكستانيين وأمريكيين وبريطانيين في السابق ، أن يكسب ثقة السفير بالتودد إلى زوجته ماري كلير . وبعد أن دَبَّر للقائهما في استقبال دبلوماسي ، مَهَّد لعقد صداقة معها بدعوتها الى رحلات نهريّة بالقوارب ، وقدّم لها تذاكر لحضور حفلة باليه ، ودفع فواتير وجبات عشاء باهظة الأسعار . وفي نهاية الأمر ، انضمّ إليهما ديجان في تجوالهم في الأوساط الاجتماعيّة . وقدَّم كروتوف إليه مترجمة جذابة تدعى ليديا . وبعد أن دَبَّر لإبعاد السيدة ديجان لتُمضي يوماً ممتعاً في الريف ، دعى السفير لحضور معرض رسومات .

وصادف أن كانت ليديا الجميلة تتأمّل الصُوَر بإعجاب عندما وصلا . وفي خلال ساعات معدودة ، أصبحت عشيقة ديجان .

وأحكمت الإستخبارات الروسية قبضتها على المبعوث الفرنسي ؛ بعدما صوَّرت الحدث . لكنّ ليديا كانت مطلقة . وليُحْكِمَ الروس إطباق مصيدتهم ، فقد احتاجوا لسنونو أخرى . وتمّ إبعاد ليديا عن موسكو «لتصوّر فيلم في منطقة خارج جدران الأستوديو» ، وتمّ تعريف ديجان على ممثلة أخرى تدعى لاريسا . وفي خلال أيام أيضاً قاسمته سريره . لكن السفير العاشق تعرض لصدمة عنيفة في شهر حزيران من عام ١٩٥٨ . إذ اقتحم رجلان عشّ لاريسا الغرامي . ولعب أحدهما دور الزوج المخدوع . وتركا ديجان وهو لا يشك بأنّه سيسمع المزيد عن زناه .

ولما شعر بالقلق الشديد ، استشار أحد الأصدقاء اللذين قدمهم إليه كروتوف ـ وكان ذلك الصديق هو غريبانوف نفسه . فأكدّ له ذلك الصديق ووعده بأن يبذل جهده لتخليصه من مأزقه . وخلال أيام قليلة ، تمكن من أن يريح بال السفير ، فقد وافق «الزوج» على أن لا يتشدّد في توجيه الإتهام . لكنّ ديجان وقع عندها في الشرك ، فالإستخبارات الروسية تتوقع منه أن يردّ هذا الجميل ، في أحد الأيام .

بعد انشقاق كروتوف ، تم استدعاء ديجان للعودة إلى باريس من قِبَل صديقه الحميم الرئيس ديغول ، واستجوابه في مكتب مكافحة الجاسوسية . وبدا أنّ الإستخبارات الروسية لم تطالب بردّ الدين . وأقاله ديغول من منصبه وقال له : «إذاً فأنت تستمتع بمرافقة النساء يا ديجان» . لكن اتضح فيما بعد أنه لم يكن السفير الوحيد الذي كانت لديه هذه الهواية .

قضت سنونو شقراء روسيّة على المستقبل المهني المميّز للسير جفري هاريسون عندما أغوته في موسكو . فتمّ استدعاء السير جفري الى لندن في عام ١٩٦٨ ، واعتقد الرأي العام خطأ في وقتها بأنّ دائرة السفير البريطاني كانت تُقدّم احتجاجاً رسمياً على التدّخل الروسي لسحق الليبرالية في دولة تشيكوسلوفاكيا .

وبعد ١٣ سنة ، تمّ الكشف عن أنه كان على علاقة بخادمة تدعى غاليا ؛ كانت تعمل في السفارة . وعندما تم عرض صورٍ عليه تُظهره وإياها معاً ، ودُعي ليصبح جاسوساً للسوفييت ، اعترف بحكمة لرؤسائه في وزارة الخارجيّة .

Anthony Courtney

ـ انطوني كورتني .

وقال السير جفري بعد أن فضحت إحدى الصحف سرّه :

«لم أسأل غاليا فيما اذا كانت تعمل لصالح الإستخبارات الروسية ، لكنّ الإفتراض كان موجوداً . إنني آسف على ذلك وبالطبع فأنا نادم . لقد تمّ تحذيري قَبْل ذهابي إلى موسكو من هذا النوع من الأفعال ـ فأي شخص ذاهب إلى بلدان الستار الحديدي ، يتمُّ تحذيره قبل سفره من أن هذا يمكن أن يحدث معه . لقد كنت في منتهى الغباء عندما فعلت ذلك» .

وقال بَديلُهُ السير دانكان ويلسون ، الذي عمل كسفير بعده في موسكو :

«كانت غاليا فتاة شقراء ممتلئة الجسم وجذّابة جداً . وليس هنالك من شكٍّ بأنّها كانت واحدة من أفضل الفتيات الموجودات في التشكيلة الروسية ، لأنه كان واضحاً بأنها كانت من طبقة تختلف تماماً عن بقية الخادمات ، لكن ليس لديَّ أية فكرة عن مدى إتقانها للتدبير المنزلي ـ فقد صرفتها من العمل بعد وصولي بعدّة أيام» .

ودُهِشَ السير دانكان عندما تلقى مكالمة هاتفية بعد عدة أيام من السفير الإسترالي . وقال : «بدا أنّ غاليا ذهبت إليه مباشرة وطلبت منه أن يعطيها عملاً ، وكان يريد أن يعرف إذا كان باستطاعتي أن أُزَكيها لديه . فأوضحت له بأنها غير مناسبة على الإطلاق» .

تُرى كم بلغ عدد البريطانيين والأمريكيين والأوروبيين الغربيين الذين تمّ إغوائهم للعمل في التجسس بواسطة ملاطفات طيور السنونو الروسية اللواتي يأسر ن بجمالهن القلوب ؟ إذ قدر القائد أنطوني كورتني ، ضابط الإستخبارات البحرية السابق الذي أصبح فيما بعد عضو حزب المحافظين في البرلمان ، العدد الإجمالي للجاسوسات الخجلات الصامتات في دول حلف شمال الأطلسي بحوالي ١٠٠٠٠ . ويقول بوجود ٥٠ منهن على الأقل في وزارة الخارجية البريطانية .

لآرائه علاقة وثيقة خاصة بموضوعنا ، لأنّ القائد كورتين كان أوّل الضحايا المعروفين الذين وقعوا في المصيدة الجنسية المستخدمة لتشويه السمعة أكثر منها للتجنيد . وبعد وفاة زوجته الأولى في عام ١٩٦١ بوقت قصير ، رافقته في رحلة عمل إلى موسكو السنونو الجميلة زينا فولكوفا ، التي كانت تعمل مساعدة في محل تأجير سيارات سياحية . ولما لاقى قبولاً منها ، أخذها الى غرفته في الفندق الوطني ، حيث وجد الراحة بين ذراعيها . وبعد سنتين عاد إلى لندن ، وألقى

سلسلة خطابات فى البرلمان يُستفسر منها عن الحصانة الدبلوماسية المعطاة للموظفين في سفارات الكتلة السوفييتية ، وادعى بأن أكثر من ٢٠ سائق يعملون في السفارة الروسيّة في كينسينغتون كانوا ضباط استخبارات روس .

في شهر آب من عام ١٩٦٥ ، تم تسليم نسخ من الصور الملتقطة لكورتني مع زينا إلى أعضاء بارزين في البرلمان وإلى صحيفة أخبار العالم وإلى زوجة ضابط البحرية الثانية ـ تمكّن كورتني من توضيح الأمور لزوجته والسُّلطات الأمنيّة ، لكنّ الرأي العام كان أقلّ اقتناعاً بالمبررات التي قدَّمها . ففقد منصب عضوية البرلمان لشؤون الشرق ، وقضي على مستقبله المهني السياسي . لا تتخذ موسكو عادة مثل هذه الخطوات المتطرّفة تجاه نقادها على المقاعد الخلفيّة في ويستمنستر ، ويمكننا أنْ نفترض بأنَّ الفضيحة العلنية لكورتني كانت تحذيراً لشخص ما ذو منصب أكبر أهميّة في كيان السُّلطة ، ليلتزم بسياسة الكرملين وإلاَّ .

قلوب وحيدة وغربان لا تعرف الشفقة

أثبت سرب من الغربان ، في شهر آذار من عام ١٩٧٩ ، بأنّ إناث السنونو الجميلات لسن العميلات الوحيدات اللواتي قدمن من روسيا مع الحب . وأُطلق لقب الغربان على رفاق كازانوفا اللبقين والوسيمين الذين اقتحموا العواصم الإداريّة لأوربا الغربية لاغواء السكرتيرات الوحيدات . فما أن تقع الفتيات التواقات لإقامة علاقة غراميّة ، تُصْبح أكثر أسرار حلف شمال الأطلسي سريّة في متناول موسكو ، فأخذتها من المئات منهن . وتمَّ التنبُّه إلى حجم المشكلة عندما هربت أربعة سكرتيرات إلى ألمانيا الشرقية في أسبوع واحد . ومع هذا فإنَّ أعمال الجنود الحمر التجسسية في الأَسِرَّة لم تكن ظاهرة جديدة .

في أحد أيام الصيف عام ١٩٦٠ ، فتحت ليونور هاينز باب شقتها الواقعة في مدينة بون بحذر . وهناك وقف أمام الباب هاينز سوترلين وهو يمسك بباقة من الورود الحمراء . وأوضح بأنّه حصل على العنوان بعد أن قرأه في إعلان بالصحيفة في عمود «قلوب وحيدة» لكنه يلاحظ الآن بأنه حصل خطأ مريع . تأثرت ليونور ، التي كانت في الخامسة والثلاثين خائفة من أن يفوتها قطار الزواج ، بالمديح ، ودعت الشاب الى تناول فنجان من القهوة . في الحقيقة لم يكن هناك أي خطأ . فليونور الوحيدة كانت الهدف المنتقى بعناية لهجوم رومانسي لا يعرف الشفقة .

اختير سوترلين للقيام بهذه المهمة بعد اختبار دقيق . وتعلم كيف عليه أن يعيش في الغرب في معسكرات أعدت خصيصاً في روسيا . فتم بناء بلدات كاملة بما فيها من دكاكين وصالات سينمائية ومطاعم لتكون مشابهة للمدن الرئيسية في بريطانيا وأمريكا وألمانيا واليابان . ويعيش فيها الجواسيس مدة شهور طويلة ليتأقلموا مع تحركاتهم المستقبليّة بالتحدُّث بلغة المكان الذي سيقصدونه فقط ، ويتعلمون كل شيء عن العملة المستخدمة فيه وأسلوب الحياة هناك .

تَدَّرب سوترلين كبقيّة الغربان على كل حِيل الإغواء والمضاجعة ، وحسب ما روى أحد المنشقين في الستينات من هذا القرن ، فقد عَمِلت فتيات سوفييتيات مثيرات كنماذج جنسية خلال الدروس التي : «صُمِمّت لتحويلنا إلى حيوانات قادرة على إرضاء ثنايا أيّة امرأة» . كما قال المنشق بأنّ الضغط كان شديداً على رفاق روميو الحمر لدرجة أنّ اثنين من زملائه انتحرا . لكن سوترلين كان من طينة قاسية .

أثناء تناولهما للقهوة ، أظهر لباقته المخادعة للإيقاع بليونور ، التي دهشت عندما اكتشفت بأن لديه وجهات نظر مشابهة لآرائها في الحياة . وأمضيا تلك الأمسية في الأحاديث ، ثم اتفقا على موعد لتناول العشاء في الليلة التالية . وتبع ذلك لقاءات ونزهات رومانسية على ضفاف نهر الراين . ووقعت ليونور في حُبّ سوترلين خلال وقت قصير . إذ كان رقيقاً متفهماً وكريماً ـ في السرير وخارجه . ولم تمض ستة أشهر حتى كانا قد اتفقا على الزواج . وشعرت زميلات ليونور العاملات معها في وزارة الخارجية لدول ألمانيا الغربية بالغيرة منها .

لكنّ شهر العسل انتهى بسرعة . فبعد أسابيع قليلة من زفافهما ، طلب سوترلين من عروسه أن تُحْضر إلى المنزل وثائق محدَّدة من المكتب الذي تعمل فيه . وفعلت ليونور كما طلب منها خِشْية أن تفقد الرجل الذي انتظرته طويلاً . فأعطاها حقيبة ذات جيب سرّي وضعت فيه الأوراق قبل ذهابها إلى المنزل أثناء فترة الغداء . وأثناء ما كانت هي تطهو الوجبة التي سيتناولانها ، قام سوترلين بتصوير الوثائق السرية ، التي أُعيدت إلى وزارة الخارجية خلال دوام بعد الظهر . وترك الكرملين التعليمات واستلم أشرطة الأفلام غَيْر المُظَهَّرة من «صندوق بريد مهجور» ، مخفي أو أماكن سرية في مبانٍ مهجورة أو جذوع الأشجار . وكان سوترلين يعلم عن موعد التسليم والإستلام كلما سمع معزوفة تانغو عنوانها «ليالي موسكو» من راديو موسكو .

وصلت أكثر من ٣٠٠٠ وثيقة سريّة للغاية إلى مقرّ الإستخبارات الروسية خلال ستة أشهر ، وتضمنت تفاصيل كاملة عن اختبارين حيويين للجاهزية القتاليّة لقوات خطوط ألمانيا الغربية والتابعة لحلف شمال الأطلسي ، وعن محاضر مؤتمرات حلف شمال الأطلسي السريّة وتحذيرات عن عمليات الإستخبارات ضدّ عملاء دول الستار الحديدي المرسلين لأغراض التجسس . كما تمّت خيانة مراكز الصواريخ السرية وخطط الإخلاء في حال وقوع غزوٍ لموسكو . وكانت خدمة سوترلين وليونور فعّالة لدرجة أنّ رؤساء الإستخبارات الروسية بدؤوا يشكّون بهما . وبالتأكيد كان معهم حق ، فما من سُلطة أمنيَّة تسمح بهذا الاستهتار الشديد بأن تتسرَّب الأسرار على هذا النطاق الواسع . لكن هذا ما حصل بالفعل .

انتهت عملية سوترلين عام ١٩٦٧ لأن المُخطط لعمليته ، إيفجني رونغ ، انشقّ ليعمل لحساب الغرب ، وأعطى معلومات مفصّلة عن أفعال سوترلين وضربات جاسوسية أخرى . وقال للمحققين الألمان الغربيين :

«لقد نسخ الزوجان سوترلين الملفات الشخصيّة للدبلوماسيين والعاملين في مكتب الخارجيّة . مما أتاح لنا بداية مثالية لمخادعات وابتزاز أخرى . وَبفضل لُولا [الاسم المستعار الذي أطلقته الإستخبارات الروسية على ليونور] فقد عرفنا مسبقاً عن صدور الأوامر بالتحري عن أيّ من عملائنا . لقد استلمنا نسخاً عن جميع رسائل وزارة الخارجية التي كانت تَمر على مكتب لُولا بطريقها إلى غرفة فك رموز الشيفرة . وغالباً ما كنّا نقرؤها في موسكو قبل أن يتمكن وزير الخارجية الألماني نفسه من قراءتها في مدينة بون» .

تم اعتقال الزوجين ، ورفضت ليونور في البداية أن تُقرَّ بأي شيء يُدين زوجها . فَعُرِض عليها اعترافه . لقد كانت واحدة من ثلاث نساء تمَّ إرساله لإغوائهن . لم يُحبها يوماً أو حتى يميل إليها ، لقد كانت لقاءاتهما وخطبتهما ومن ثم زواجهما بأوامر صدرت من موسكو . وكانت عواطفه أثناء مضاجعتها مجرّد واجب عليه أن يؤديه . لم تقل ليونور شيئاً أثناء ما كانت تقرأ الكلمات القاسية . لكنها شنقت نفسها في تلك الليلة في زنزانتها بقماش اقتطعته من فستانها . وحُكم على سوترلين بالسجن لمدة سبع سنين .

لقد كانت ليونور هاينز ضحية مأساويّة لأوضاع مدينة بون التي استغلتها موسكو بلا شفقة . واحتوى مركز العصب الأعمال الرسمية لإدارات المانيا الغربية ودول حلف شمال الأطلسي على عشرات الآلاف من الفتيات الطموحات اللواتي يعملن كسكرتيرات ، وموظفات استقبال ومقاسم هاتفية ، وموظفات مساعدات . وقد كان لديهن شقق فاخرة ،ووظائف محترمة ، وسيارات حديثة والكثير من الأموال . ولم يَكُنْ ينقصهن سوى شيء واحد ـ الرجال . إذ كان موظفوا المكاتب الذين كنّ يعملن معهم متزوجون غالباً ، أو متوفرين لعلاقات قصيرة الأمد فقط . كما لم تكن حياة الليل في الجوار كما هي في مُدُن مثل باريس أو لندن أو نيويورك . وكانت العوانس اليائسات ضعيفات أمام أي رجل يعرض استعداده للخروج معهن . ومع أواخر السبعينات أصبح هنالك أهداف فجأة لرجال كهؤلاء .

كانت هيلغا بيرغر في الثامنة والثلاثين من العمر ، وتعمل سكرتيرة في وزارة الخارجية التي عملت فيها ليونور ، عندما تقدَّم منها شخص غريب منها أثناء ما كانت تجلس في مقهى بجانب نهر الراين . وسرعان ما استدرجها بيتر كروز ، الأنيق والمتوسط الكِبَر في السن ، بدعوتها إلى وجبات عشاء باهظة الثمن ، وقضاء أمسيات في الأوبرا ودُور السينما والمسرح . فأصبحا عشيقين وذهبا إلى اسبانيا معاً خلال الإجازة . وعندها أطبق عليها . فقال كروز بأنه يعمل لصالح الإستخبارات البريطانية ، وقدّمها لرجل ادعى بأنه رئيس الإستخبارات البريطانية . ولم يكن هناك أي ضرر على ما يبدو آنذاك من الحصول على أوراق محدَّدة وإعطائها لعميل يعمل لصالح إحدى دول حلف شمال الأطلسي . وبعد عدَّة أشهر ، كشف لها كروز عن الحقيقة ـ لقد كان جاسوساً ألمانياً شرقياً . ولم يعد بامكان هيلغا أن تتراجع وقتها ، فاستمرّت بإعطائه المعلومات لعدة سنوات . وقالت باكية أثناء محاكمتها : «لم أكن أريد أن أفقده ، فلقد أحببته ، أحببته» . وعندما دخلت السجن لقضاء مدة الحكم التي صدرت بسجنها خمس سنوات ، كان كروز في ألمانيا الشرقيّة .

كما تُرِكَت داغمار شيفلر لتجمع شتات نفسها بعد أن هجرها حبيبها . فلم يمض وقت طويل على طلاق داغمار البالغة من العمر ٣٥ عاماً ، والتي كانت تعمل في مكتب الخاص بمستشار ألمانيا الغربية ، حتى دخل هربرت شروتر حياتها . وسرعان ما كانت تُعطيه تفاصيل سياسة ألمانيا الغربية الدفاعية وموقف الغرب من

إهمال السوفييت لحقوق الإنسان وموقف بون من موسكو . وقد تمَّ تحذير شروتر في الوقت المناسب كي يهرب إلى روسيا قبل اعتقال داغمار بوقت قصير . وقالت فيما بعد : «لقد كنت بحاجة لرجل ، وكان هربرت فارس أحلامي . ولقد تم خداعي» .

كما كانت رينانه لوتز ، البالغة من العمر ٣٩ عاماً ، ضحية غراب آخر . فقد سرَّبت أكثر من ١٠٠٠ وثيقة سريّة من مكتبها ـ التابع لموظف في وزارة الدفاع الألمانية الغربية ـ للرجل الذي أغواها وتزوجها ، لمدّة ست سنوات من التجسس قبل أن يتم اعتقالهما .

كان للرئيس الأندونيسي أحمد سوكارنو شهرة عالمية لكونه يعشق النساء ، لذا كان طبيعيّاً أن تحاول الإستخبارات الروسية ابتزازه عن طريق إيقاعه بفخّ جنسي أثناء زيارته لموسكو . فتم تقديمه إلى العديد من طيور السنونو الجميلات والمدربات بخبرة ، وصوّروه أثناء مطارحته لهن جميعاً في جناح إقامته بالفندق . لكن عندما تمَّ عرض الدليل أمام ناظريه مع عرض مقابل للإبتزاز . أدهش سوكارنو العملاء السوفييت عندما طلب نسخاً من تلك الأفلام ليأخذها إلى بلاده ويعرضها علنيّاً ، وأضاف : «سيكون شعبي فخوراً بي بالتأكيد» . فلم يتابعوا محاولة التجنيد تلك .

دَرَّبت موسكو أيضاً شبّاناً ليصبحوا غرباناً شاذين جنسياً . وشارك أحدهم في فخّ ابتزاز للإيقاع بجاسوس الأدميراليّة البريطانية ويليام فاسول في عام ١٩٥٤ . وأَخْبر ثلاثة منشقين سوفييت الغرب في أوائل الستينات من هذا القرن بأن غُرابي مُتْعَةٍ آخرينْ شوّها سمعة جون واتكنز عندما كان يشغل منصب السفير الكندي في روسيا ، إذ التقطت كاميرات مخبأة صوراً ـ قيل لواتكنز بأنها يُمْكن أن تُسْتخدم للقضاء على مستقبله العملي ما لم يقم بالتشجيع على خط تأييد للسوفييت في سياسة كندا الخارجيّة . وكان واتكنز في ذلك الوقت مرشح لاستلام وظيفة في وزارة الخارجية الكندية ، قبل أن يصبح سفيراً في الدانمارك ويتقاعد فيما بعد بسبب تدهور حالته الصحيّة . وتمَّ استدعاؤه إلى مونتريال للاستجواب بعد أن كشف المنشقون عن أعماله المخزية السريّة ، لكنه مات بالسكتة القلبيّة في عام ١٩٦٤ عن عمر يناهز ٦٢ عاماً ، بعد أن خضع لاستجواب في شهر تشرين الأول من ذلك العام .

حصل انشقاق خطير ، في آذار من عام ١٩٧٩ ، لستة سكرتيرات على الأقل خلال شهر واحد ، هربت أربعة منهن عبر جدار برلين خلال أسبوع واحد . وكان من بين هؤلاء الستة كريستيل بروسزي البالغة من العمر ٣٢ عاماً ، والتي كانت السكرتيرة الأولى لزعيم حزب المعارضة في ألمانيا الغربية ، وإينغ غولين البالغة ٣٥ عاماً من العمر وتعمل سكرتيرة للناطق الرسمي للشؤون الخارجية في الحزب ذاته ، وإينغبورغ شولتز ، ٣٦ عاما ، من وزارة العلوم ، وهيلغا رويدينغر ، ٤٤ عاماً ، التي كانت تعمل في وزارة المالية .

وقال متحدث رسمي باسم حلف شمال الأطلسي :«لقد اكتشفنا أن وراء كل فتاة انشقّت ، عشيقاً من العملاء السوفييت . فحالما كانت تقع في غرامه ، يُصبح من المستحيل عليها أن تنجو من حبائله ، لأنها وقعت على عشيق لطيف ورائع في السرير لأنّه تلقى تدريباً على ذلك» . وقال هيربرت هيلينبرويخ رئيس قسم الإستخبارات المضادّة للتجسس في ألمانيا الغربية .

«إن هؤلاء نساء كبيرات في العمر ، وصلوا الى منصب عال بعدما أصبحو أهلاً للثقة والاعتماد عليهن بتكريس أنفسهم لأعمالهن . ومن السهل الايقاع بهنّ بادعاء الحب ، فيصبح بإمكان العملاء السوفييت أن يكشفوا عن شخصيتهم الحقيقية دون خوف من افتضاح أمرهم ؛ فالمرأة ستكون معتمدة عليهم لأجل الحب ، وتخشى من أن تفقد الرجل الذي أدخل الرومانسية إلى حياتها» .

لكنّ ألمانيا لم تنفرد بمشكلة الغربان لوحدها . ففي نفس الشهر ـ آذار عام ١٩٧٩ ـ هربت أوريل لورنزن ، سكرتيرة الرجل الذي خطط لجميع تجارب حلف شمال الأطلسي العسكرية في مقر الحلف في مدينة بروسلز ، مع عشيقها إلى برلين الشرقية ، وظهرت على شاشة التلفزيون لتتهم الغرب بأن لديها خطططوارىءيمكن أن تقلص الكثير من وسط أوروبا على كلا جانبي الستار الحديدي ـ بتحويلها إلى أراض ملوثة بالإشعاع الذرّي . وأخذت أورسيل البالغة من العمر ٣٨ عاماً ، أضابير من ملفات حلف شمال الأطلسي معها . ووصف رؤساء الأمن في بلجيكا خيانتها «بضربة تدميريّة» .

شدَّد ملاحقوا الجواسيس في الغرب من مراقبتهم لأشخاص اشتبه بكونهم من الغربان . وأفاضوا على الصحافة بسيل من القصص التي تروي كيف انتسب

العملاء السوفييت لمدارس تعليم اللغات لإغواء الفتيات الدارسات ليزدن من مؤهلاتهن المطلوبة للعمل في هيئات وطنيّة متعددة . وقد وضعوا لافتات تحذيرية في جميع دول حلف شمال الأطلسي والمكاتب الحكومية كُتِبَ عليها : «توجد تعويذة يمكن أن تفتح الخزنة ـ ألا وهي الحب» . وبدا أن التحذير قد آتى ثماره لفترة من الزمن ، حتى حلّ شهر نيسان من عام ١٩٨٠ ـ عندما فشلت السكرتيرة البلجيكية أميلدا فيربت من العودة إلى عملها في مقر حلف شمال الأطلسي في مدينة بروسلز بعد الإخفاق الشرقي . كانت أميلدا في الثلاثينات عندما تعرفت على صديق لطيف جديد . وذهبت أثناء الإجازة معه . . إلى برلين الشرقيّة . ولم يعد الإختبار العسكري المدعو شابكس ، والذي كانت جيوش حلف شمال الأطلسي ستقوم به خلال أسابيع قليلة ، سرّاً يخفى على موسكو بعدها . وطار غراب آخر بعد أن خلّف وراءه طائر الوقواق في عش الغرب .

لكن أكثر النجاحات الروسيّة أهمية في مجال استخدام الجنس في التجسس لم يكن من عمل الغربان الشيقة ولا إناث السنونو اللطيفة أو السيدات اللعوبات . فقد تدَّخل الكرملين ببساطة عندما أُعجب رجل بلا رويّة بفتاة التقاها بالصدفة المحضة .

فضيحة الجاسوسية التي دمرت برفيومو

سار اللورد أستور أمام ضيوفه باتجاه بوابة السور المحيط بحوض السباحة وقد استثارتهم أصوات الضحكات التي كانت تتعالى من ذلك المكان . وأثناء ما كانوا يفتحون البوابة خرجت حسناء عارية من المياه ، وأبعدت بيديها شعرها الأحمر الطويل عن عينيها ـ ولاحظت عندها وصول الغرباء الذين اتسعت ابتساماتهم عندما صرخت مطالبةً بملابس السباحة التي رماها رفاقها بعيداً عنها . لكنّ أحداث السنتين التاليتين مسحت تلك الابتسامات عن وجوه جميع من كان حاضراً تقريباً . إذ أدى هذا اللهو البريء في احدى أمسيات صيف عام ١٩٦١ إلى تشويه سمعة وزير الحكومة البريطاني وهزيمة حزبه في الإنتخابات بعد ١٣ عاماً من تولي السلطة ، ومصرع أحد أولئك المتواجدين وشكوك جديّة بسيد جاسوسية من الطراز الأول ومديح وترقية أحد العملاء السوفييت . حيث أنّ ذلك اللهو على أطراف حوض السباحة كان المشهد الإفتتاحي في أكبر الفضائح السياسية البريطانيّة في

هذا العصر ـ قضية بروفيومو . ولقد أصبح من الواضح الآن بأنّ ما وصفه رئيس الوزراء هارولد ماكميلان في البداية على أنّه «نزاع سخيف على امرأة» ، كان في الحقيقة نصراً روسياً ساحقاً تمّ الإعداد له بعناية فائقة .

كان اسم الحسناء التي في حوض السباحة كريستين كيلر ، وكانت آنذاك في العشرين من عمرها ، وتقيم في كوخ بمقاطعة كليفون ، التابعة للورد آستور ، مع الدكتور ستيفن وارد ـ المعالج الفيزيائي الذي أراحت «يداه الشافيتين» آلام بعض الأثرياء وأصحاب النفوذ في المجتمع البريطاني . وقد سمح له اللورد آستور باستخدام الكوخ في عام ١٩٥٠ . كَرَدّ على خدماته في الماضي . لكنّ البادرة الكريمة ارتدت عليه بوحشيّة ، لأن وزير الحربية جون بروفيومو كان من بين الضيوف وقتها . وخلال بضعة أيام ، طلب من وارد أن يهيء له موعداً مع كريستين ؛ التي أصبحت عشيقة السياسي خلال وقت قصير .

إنّ علاقة غرامية كهذه ليست بمستغربة بين أعضاء البرلمان المتزوجين . وقال المتحدث الرسمي للشؤون الأمنية في حزب العمال ـ جورج ويغ ، الذي كان له دوراً بارزاً في هذه الفضيحة : «إنّ قلائل من أعضاء مجلس العموم لم يقوموا بأفعال جنسية مُشِينة» . ولعلّ ما سبب وقوع بروفيومو كان شخصية رفيق وارد الآخر في ذلك اليوم في كليفدن ـ الكابتن وجين ايفانوف ، الجاسوس الروسي الذي كان يعمل ظاهرياً كمساعد للملحق العسكري للشؤون البحريّة في السفارة الروسية بلندن .

لقد تم تعريفه على وارد بواسطة السير كولين كوت ، المحرر في صحيفة اللورد آستور (الديلي تلغراف) . عالجه المعالج الفيزيائي من ألم في ظهره ، وصادف بأن نوّه إلى أنّه يتمنى أن يذهب الى موسكو لرسم لوحات ، كونه فنان ، لكنه يواجه صعوبات في الحصول على الفيزا . وأثناء ما كان إيفانوف يتجوّل في مكاتب صحيفة (التلغراف) مع فريق من الملحقين العسكريين ، تذكر السير كولين المحادثة ، ودبّر موعداً على العشاء ليلتقي فيه الإثنان . وسرعان ما أصبحا صديقين . لكن المحرّر لم يعرف بأن كِلاَ الرجلين لم يكونا كما هما في الظاهر . مما أدى إلى نهاية مأساوية لبروفيومو .

إحدى تَطرفات وارد أنه كان يلتقي الفتيات في ملاهي لندن الليلية ، ويقوم بتحويلهن إلى مومسات من الطراز الأول . ولقد كانت كريستين كيلر راقصة تعرية

ـ كريستين كيلر .

Left:
Christine
Keeler

Below: John
and Valerie
Profumo

ـ جون وڤاليري بروفيومو

في نادي موريه الليلي عندما وقعت تحت تأثير سيطرته . وقدَّم وارد فتيات إلى شخصيات دولية وإلى مرضاه من ذوي النفوذ ، وتحرت استخبارات مكافحة الجاسوسية أمره منذ بدأ يتردد على الأوساط الرفيعة والأشخاص من ذوي السلطة . وكانوا مستعدين لغض الطرف عن بعض هفواته القديمة مقابل بعض المعلومات في مناسبات مختلفة . وعندما أخبر عن علاقته بإيفانوف ، خطط رئيس استخبارات مكافحة الجاسوسية في بريطانيا السير روجر هوليس لمكيدة مساومة في محاولة لحمل السوفييتي على الإنشقاق . فقد كان إيفانوف جاسوساً معروفاً ـ فالعميل المزدوج أوليغ بينكوفسكي قال اسمه خلال استجواب المحققين البريطانيين والأمريكيين له ـ وصدرت الأوامر لوارد كي يلعب عليه ويغريه بالثراء الغربي وينمي حبه للشراب والنساء . وكانت كريستين كيلر واحدة من اللواتي مررن بسريره .

زاد من حزن الإستخبارات المضادة للجاسوسية في بريطانيا أنّ إيفانوف كان شيوعياً ملتزماً لاحظ محاولة الإيقاع به . ويمكن أن يكون وارد الذي يحمل بعض التعاطف للإشتراكية ، قد أخبره بذلك . وقدم الروسي تقريراً عن الموقف لموسكو أثناء ما كان يتلاعب بمخطط هوليس . واكتشف أن وارد التقط صوراً لأشخاص مهمين وهم يضاجعون الفتيات اللواتي أحضرهن لهم من خلال زجاج عاكس . وحصل إيفانوف على نسخ من صور الإدانة التي جمعها المعالج الفيزيائي في ثلاثة ألبومات لمحاولات ابتزاز محتملة . وعندما اكتشف بأن كيلر كانت عشيقة بروفيومو ، أشار إلى أن وارد لن يواجه مصاعب في الحصول على تأشيرة للذهاب الى موسكو ، إذا استطاعت أن تعرف من الوزير التاريخ الذي اقترحته أمريكا لتزويد القوات الجوية الألمانية الغربية بأسلحة نووية .

ليس هنالك من دليل على أنّ كيلر قد طرحت هذا السؤال ، ولا افتراض بأن بروفيومو كان يمكن أن يجيبها إن هي سألت . لكن الأخبار ، التي ترددت عما كان يدور برأس إيفانوف ، أجبرت السير روجر هوليس على التحرّك . ومن المحيّر أنه لم يذهب إلى وزير الحربيّة نفسه ، ولا إلى رئيس الوزراء أو سكرتير مجلس الشعب السير نورمان بروك عن وضع بروفيومو الحرج ـ وطلب عندها . بمنتهى الغرابة من السير نورمان أن يحاول اقناع بروفيومو بالمساعدة لإغراء إيفانوف على الإنشقاق . كانت تلك مكيدة محاطة بالمخاطر . إذا لا يمكن أن يبدو وزير وهو يتعامل بالأمور التجسسية ، واختار بروفيومو رَفْض الفكرة بعدما خرج الموضوع من بين يديه .

وفي نفس الوقت ، قرر إنهاء علاقته مع كيلر ، لكنه فعل ذلك بخطاب أرسله إليها وبدأه بكلمة حبيبتي . فكانت تلك الفعلة كمسمار آخر يدقّ في كفنه السياسي . . . وعلى أية حال ، كان الوقت متأخراً كي يُغيّر بروفيومو موقفه من الإختيار الصعب .

كان حزب العمال المعارض وقتها يندد بسلسلة الفضائح التجسسية ـ كحلقة بورتلاندو جاسوس الأدميرالية ويليام فاسول والعميل المزدوج جورج بليك . وكان جورج ويغ يقود تلك الحملة . وتلقى في ١١ تشرين الأول عام ١٩٦٢ مكالمة هاتفية غامضة في منزل عميله السياسي في دادلي . إذ قال صوت متحشرج : «إنسى فاسول ، عليك أن تنظر إلى بروفيومو» . لم يكن ويغ وبروفيومو على وفاق ، فقد وجها الإتهامات إلى بعضهما بغضب قبل أيام في مجلس العموم عن نقص أقلمة القوات البريطانية على الحرارة قبل ذهابهم في مهمة إلى الشرق الأوسط . لكن تلك المخابرة لم تأتِ من حليف سياسي . ففي واقع الأمر ، لم يكتشف ويغ ، الذي مات في شهر آب من عام ١٩٨٣ ، من الذي قام بالإتصال الهاتفي . ومن الممكن أن تكون من صحفي أراد الحصول على سبق صحفي ليقدمه للرأي العام . كما يمكن أن تكون من شخص يكنّ الضغينة لوزير الحربية . لكن خبراء الأمن يعتقدون بأن الإتصال الهاتفي كان من عميل روسي بهدف التسبب بفضيحة . وإذا كان هذا هو هدف الكرملين ، فإنهم لم ينتظروا طويلاً .

بدأ ويغ ومساعديه التحقق من موضوع بروفيومو . وأكدت كريستين كيلر بأنّها كانت عشيقة لكل من الوزير وإيفانوف . وعلى أساس تهديد الأمن أكثر منه قضية الزنا الأخلاقية، وجّه ويغ الإتهام مع أعضاء مجلس العموم في ٢١ آذار ١٩٦٣ . وعرف رؤساء حزب العمال والأوساط العسكرية باحتمال حدوث فضيحة . لكن سكرتير الشؤون الداخلية هنري بروك ، الذي وُجّه إليه استفسار ويغ ، لم يكن على اطلاع بالموضوع على الإطلاق . وأنكر بروفيومو بغباء أي علاقة له بكيلر . عندها تقدم بروك بطلب رسمي إلى السير روجر هوليس يطالبه فيه بتفسير ما كان يجري . وكشف رئيس استخبارات مكافحة الجاسوسية في بريطانيا أخيراً عما عرفه قبل ١٨ شهراً ـ بأنّ إيفانوف طلب من وارد أن يعطيه تاريخ تسليم الأسلحة النووية لألمانيا ـ لكنه أشار إلى أن المخاوف الأمنية تلاشت مع عودة إيفانوف إلى موسكو في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٣ ، مُنْهياً بذلك بوادر

عاصفة كانت في الأفق .

أصبح ظهر الحكومة ، التي وصلتها معلومات ضئيلة من الجواسيس ، مستنداً إلى الحائط . وتورّطت كريستين كيلر مع عاشقين من غربي الهند ، تم اعتقال أحدهما لأنه عض الثاني بدافع الغيرة وأطلق أعيرة نارية في منزل ستيفن وارد . وتقدمت كيلر ، التي كانت تعاني من ضائقة ماليّة ، من الصحف ، وعرضت بيع قصتها . ثم سلمتهم رسالة بروفيومو . وهربت بدورها خوفاً من الضغط المتصاعد . وكان هنالك تلميحات بشعة بأن المؤسسة قد تخلصت منها . وتمت ملاحقتها الى مدريد ، حيث كانت لا تزال مستعدّة لبيع الجانب التي يخصها من الأحداث مقابل المال . وتابع بروفيومو إنكار علاقتها بها . وكذب على مجلس العموم في خطاب ألقاه ، واستخدم مجلة إيطالية ، كدليل عندما تمَّ التشكيك بكلامه . لكن هذا لم يكن نزاعاً سياسياً يمكن أن ينقلب رأساً على عقب . وعندما ذهب لقضاء إجازته في مدينة البندقية الإيطالية مع زوجته ، الممثلة السابقة فاليري هوبسون . قرّر أن يخلص ضميره ويفضي إليها بسره . وعادا على الفور إلى لندن حيث استقال في ٤ حزيران من منصبه كوزير للحربية وعضو في البرلمان ـ وهي الوظيفة التي بقي فيها ٢٥ سنة . وكملت فضيحته بشطب اسمه من عضوية الحزب لمحاولته تضليل الرأي العام .

واكتملت الفضيحة الآن ، وتفاعلت أحداثها مع ما كشفته كريستين كيلر ، التي باعت مذكراتها الى احدى الصحف بمبلغ ٢٣٠٠٠ جنيه ، وموت ستيفن وارد . فقد تناول جرعة زائدة من عقار عندما كان يواجه اتهامات بالتعامل في مكاسب لا أخلاقية في شهر تموز . ولقد تمّ وصفه أثناء المحاكمة «بشخص قذر للغاية» و«مخلوق حقير» . لكن السير كولين كوت قال :«إنني أشك أن يكون شخص وضيع مثل هذا قد أحرج حكومة كاملة من قبل» . وفي الحقيقة ، فقد توضّح مع مرور الوقت بأن وارد وكيلر كانا حجرين يتحركان في اللعبة .

وحصل نزاع كبير حول موضوع بروفيومو في مجلس العموم في ١٧ تموز . وتمّت مخاطبة رئيس الوزراء هارولد ماكميلان بكلمات جارحة لا رأفة فيها . كما وأُجبر على الإعتراف بأنّ أحداً لم يقم بإخباره عما كان يحصل حتى أصبح الوقت متأخراً لتغيير مجرى الأحداث . وكان ذلك تصريحاً مذهلاً من رئيس الحكومة ،

حتى أنّ الخصم الرئيسي جورج ويغ كان محرجاً وهو يشاهد خصمه السياسي مضطرباً من ضربتي خيانة الولاء من زميل والتقصير المريع في الحصول على المعلومات . استقال ماكميلان من منصبه كزعيم لحزب المحافظين خلال (١٢) شهراً ، ويعتقد الكثيرون بأن انهيار بروفيومو كان عاملا أساسيا في عام ١٩٦٤ وراء هزيمة خلفه ، السير دوغلاس هوم ، في الانتخابات العامة أمام هارولد ويلسون وحزب العمّال .

شاهد رئيس استخبارات مكافحة الجاسوسية في بريطانيا ، السير روجر هوليس ، اضطراب ماكميلان أثناء محنته من جرّاء التشهير العلني . وكان عليه هو أيضاً أن يتقاعد خلال عام واحد ـ ربما تحت ضغط من الأعضاء المساندين لماكميلان في البرلمان ؛ الذين اعتقدوا بأنه كان على خطأ كبير عندما لم يعلمهم عن أعمال بروفيومو وحقيقة أنّ السير روجر قد تخلى بشكل خاص عن إجراء تحقيق كامل عن نشاطات إيفانوف يقوم به رجال الإستخبارات العاملين لديه .

مات السير روجر في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٣ . وبعد ثماني سنوات ، حَلَّل الكاتب تشابمان بنشر عمله في كتابه «الخيانة تجارتهم» ، وقال بأنّ سيد الجاسوسيّة قد فعل أقل ما يمكن فعله بعد فوات الأوان في قضية بروفيومو . كما اتهمه أيضاً بإخفاء تقرير مقابلته للمنشق إيغور غوزنكو في عام ١٩٤٥ ، وعرقلة إجراءات التحقيق مع أنطوني بلانت لمدة أسبوعين عام ١٩٦٤ بلا مبرر ـ مما أتاح وقتاً للخائن كي يستشير سادته أو يُتلف الدليل ـ ورفض متابعة التحريات . عن بعض الأشخاص الذين قال بلانت بأنهم جواسيس ، وأشرف على مكتب استخبارات مكافحة الجاسوسية في بريطانيا في وقت النقص الواضح للنجاح ، بسبب تسرّب أنباء العمليات المضادة للسوفييت إلى الأهداف . ونوّه بنشر عندئذ إلى أنّ المنشقين السوفييت كانوا يخشون القدوم إلى بريطانيا ، لأكثر من عِقْد من الزمن ، لأنّهم كانوا يعلمون عن جاسوس روسي يشغل منصباً عالياً فيها . وادعى بأن السير روجر ، العميل الموثوق به لأكثر من ٢٥ سنة ، كان ذلك الجاسوس .

أنكرت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر ما قد نُسب من اتهامات في مجلس العموم في عام ١٩٨١ . وتمت أيضاً تبرئة السير روجر من اللوم الموجّه إليه في لجنة اللورد دينينغ لتقصي الحقائق وتقديم تقرير عن قضيّة بروفيومو ؛ والتقرير الذي

صدر في عام ١٩٦٤ . وربما أنّه قدم تبريرات معقولة عن الأفعال التي أغضبت أعضاء مجلس الشعب . وربما أيضاً أنّ دوره قد تم تقليله إلى الحد الأدنى لتجنّب الكشف عن مكتب استخبارات مكافحة الجاسوسية في بريطانيا ، الذي لم يكن موجوداً رسمياً حتى ذلك الوقت . لكن كان هنالك توبيخ مضاعف على المحاولة غير الحكيمة للدفع إلى الانشقاق من خلال هذه الكلمات التي قالها له اللورد دينينغ :

«لقد قام الكابتن إيفانوف بدور جديد في الأسلوب الروسي ، كان سيؤدي إلى قطع العلاقات بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة بأساليب ملتوية . فإذا تعرض الوزراء والأشخاص البارزين للشبهة ، أو أصبحوا في موقف يدمر سمعتهم ، أو تظهر من خلال الإستخبارات غير كفؤة ، فإن ذلك يمكن أن يضعف ثقة الولايات المتحدة بأمننا والقدرة على الإعتماد علينا . . وإذا كان هذا مقصد الكابتن إيفانوف ، الذي استخدم وارد كأداة تنفيذ لمخططه ، فقد نجح نجاحاً مطلقاً في مسعاه» . كان المعنى واضح : لقد استمر هوليس باللعب بالنار في الوقت الذي كان عليه أن يكون حذراً أكثر من ذلك .

لم تكن فضيحة بروفيومو من تخطيط الروس ، لكنهم استغلوها لمصلحتهم . وظهر دليل أوضح عن خداعهم في أمريكا ؛ إذ كان أحد ضباط الإستخبارات الروسية يعمل في الولايات المتحدة ، ويقدّم للإستخبارات الأمريكية معلومات قدّرها سيد الجاسوسية ج . إدغار هوفر بشكل كبير . وفي عام ١٩٦٣ ، أخبر الإستخبارات الأمريكية عن حوار دار بين إيفانوف وموسكو ـ ادعى فيه إيفانوف بأنه تنصّت على ما يدور في غرفة نوم كريستين كيلر ، وحصل على سرّ جاسوسي قيّم من حديثها مع بروفيومو وهما مستلقيان يتحدثان على الوسادة . أرسل هوفر المعلومات الى الرئيس كينيدي ، لكنّه تقاعس عن إرسالها إلى لندن ، قائلاً لمساعديه : «تكفي السيد ماكميلان مشاكله حتى الآن» . وعندما وقعت الأحداث ، ثبت أنّ العميل المزدوج العامل في الأمم المتحدة كان يمثّل دور الجاسوس ـ بتقديم معلومات لا يُستفاد منها .

لم تكن حقيقة أنّ مستقبله المهني قد دُمّر بمخطط سوفييتي مخادع ليُعَزّيَ جون بروفيومو ـ الذي انسحب من دائرة الضوء جامعاً أكثر ما يمكنه جمعه من عزّة النفس ـ وأرسل زوجته للعمل في مهنة إحسانية سريّة . لقد تحطمت حياته بسبب شراهته

الجنسية ، تماماً كأولئك السياسيين والدبلوماسيين الذين وقعوا في مصائد إناث السنونو والغربان . لكنه نجا على الأقل من تهمة اشتغاله بأعمال التجسس التي تجري في الخفاء دون أن يصاب بأذى . إذ لم يكن الكثيرون بمثل حُسْن حظه ، كما سنرى في الفصل التالي .

تَعْتبر موسكو ناطحة سحاب التي تشغلها مكاتب الأمم المتحدة في نيويورك كـ «أطول برج مراقبة في العالم الغربي لنشاط الإستخبارات» ، كما أن نصف الـ ٨٠٠ سوفييتي الذين يعملون في نيويورك هم عملاء جاسوسية . كان ذاك جزء من دليل العيان الذي قدّمه أركادي شيفتشنكو عندما طلب حق اللجوء السياسي في أمريكا في شهر نيسان من عام ١٩٧٨ . كان شيفتشنكو ، البالغ من العمر ٤٨ عاماً ، دبلوماسيّاً لامعاً أثناء تولي أندريه غروميكو لمنصب وزير الخارجية ، ويشغل منصب سفير لدى الأمم المتحدة ؛ لذا كان أرفع الروس رتبة من بين أولئك الذين انشقوا الى الغرب . وقال بأنه فعل ذلك لأن موسكو كانت متورطة في السر بأعمال إعادة تسلح ضخمة ، رغم أن التصريحات الصادرة عنها كانت تنادي بالحد من التسلح . وبعد شهر من انشقاقه ـ الذي تَبع عامين من العمل كعميل سري للإستخبارات المركزية الأمريكية ـ ماتت زوجته من الإفراط في تناول جرعة دواء غامض في موسكو . قامت بعدها فتاة متعة تدعى جودي تشافيه بفضح شيفتشنكو عندما كشفت بأنه أنفق ، خلال ستة أشهر من علاقتهما الغرامية ، قرابة ١٠٠,٠٠٠ دولار من أموال الإستخبارات المركزية الأمريكية على سيارة سباق جديدة . كما امضيا معاً ١٠ أيام في جزر الكاريبي أثناء العطلة على نفقة دافعي الضرائب . نجا شيفتشنكو من الفضيحة التي كادت تعصف به ، كأيّ سياسي بارع ، فتزوّج من فتاة أمريكية أخرى واستقر في واشنطن بهدوء ، وعمل كمستشار للإستخبارات المركزية الأمريكية براتب سنوي قدره (١٧٠٠٠) جنيه .

عندما ألقى عملاء مكافحة الجاسوسية القبض على الجاسوس الجنسي كارل هيلفمان ، قال : «الحمد لله ، الآن أصبحت آمناً من أولئك النسوة» . وكان هيلفمان ـ الملقب بكازانوفا الأحمر ـ أخطر غراب روسي تمّ إلقاء القبض عليه . كان عمره يقارب الستين عاماً ، ويتعامل بتجارة الخمور ، عندما تم تجنيده في معرض تجاري في لايبزغ في عام ١٩٥٣ . وقد وافقت دول المعسكر الشرقي على شراء الخمر الذي يبيعه إذا قدم لهم الأسرار بالمقابل . فبدأ خمسة أعوام من أعمال الإغوائية لرجل الأعمال المتجول والوسيم . فأغوى سكرتيرات في كل بلدة نزل بها ، وضاجع في الغالب ثماني نساء على الأقل في كل أسبوع أثناء تنقله بين هانوفر وفرانكفورت وبين دوسلدروف وبون في سيارته الفولكسفاجن الفخمة . وركب مدراؤه الروس جهاز لاسلكي سري في السيارة بحيث يستطيعون الإتصال به أثناء تجواله . فقام بإغواء المصادر في الإدارات الحكومية ومخابر الأبحاث العلمية ، ومصانع الطائرات ومعامل الصلب والسفارات في ألمانيا الغربية ، واستلم أكثر من ١٥٠٠٠ جنيه لقاء جهوده من سادة الجاسوسية المسرورين من المعلومات التي كان يسربها لهم . لكن أحد الأشخاص قام بخيانته في عام ١٩٥٨ ؛ وربما كان ذلك الخائن إحدى عشيقاته التي رأته مع واحدة من منافساتها . وتمّ الحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع الأشغال الشاقة . لكن هذا الحكم كان بمثابة فترة نقاهة لهيلغمان إذا ما قورن بالخمس سنوات السابقة .